الآداب
المجلد:22، العـــدد:01، ديسمبر 2022
الصفحات: 282-306 ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

تمثلات الهوية في رواية "اختفاء السيد لا أحد" لـ "أحمد طيباوي"

Identity representations in the novel “The Disappearance of Mr. Nobody” by Ahmed Taybawi

د. ريمة كعبش [1]
[1] جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي– الجزائر، rym.doc16@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/07/24 تاريخ القبول: 2022/03/21 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

تمثل الهوية إشكالية كبرى شغلت المثقف الجزائري ولا تزال، وقد أدى به الأمر إلى تمثيلها إبداعيا للتعبير عن الشرخ الكبير الذي يعاني منه الفرد الجزائري نتيجة تأثره بالظروف التاريخية المختلفة التي عايشها، والتي ترتبط بالمرحلة الكولونيالية وما بعدها.

ورواية "اختفاء السيد لا أحد" لـــ "أحمد طيباوي" نموذج للرواية الجزائرية المعاصرة التي وظفت الهوية كتيمة أساسية فيها، وقد ارتأينا أن نقوم برصد تمثيلاتها وكيفية حضورها فنيا على مستوى المتن السردي.

كلمات مفتاحية: رواية؛ هوية؛ تمثلات؛ فنية.

Abstract:

Identity represents a major problem that preoccupied the Algerian intellectual and still does. This led him to represent it creatively to express the great rift that the Algerian individual suffers from as a result of the effect of the different historical conditions that he lived through, and which are related to the colonial period and beyond.

The novel "The Disappearance of Mr. Nobody" by "Ahmed Taybawi" is an example of the contemporary Algerian novel in which identity is used as a basic seal. We seek to observe its

representations and how it is artistically present at the level of the narrative corpus.

Keywords: *novel ; identity ; artistic; representations.*

المؤلف المراسل: ريمة كعبش.

مقدمة:

تبوأت الرواية مكانة سامية بالمقارنة مع الأجناس الأدبية الأخرى، فبعد أن كان الشعر هو الرائد في الساحة الأدبية والثقافية أصبحت الرواية هي الرائدة في الصرح الإبداعي الراهن، إذ لقيت تجاوبا كبيرا من قبل القراء والباحثين، واعتبروها ديوان العرب، لقدرتها على طرق تيمات مختلفة ومتنوعة على مستوى متنها السردي، أساسها التعبير عن الحياة، والفكر، والمجتمع، وتناول واقع الإنسان، وآلامه، وهمومه، وطموحاته.

وقد اهتمت الروايات العربية ما بعد الحداثية بالقضايا المتعلقة بالهوية، لتضعها ضمن أولوياتها الثقافية والإيديولوجية، حيث جاءت الرواية بنمط مغاير وطرح جديد في التعبير عن الوطن، والذات، والهوية، وتناول السرد بصفة خاصة أدوار الشخصيات وهي تحاول تحديد ذواتها، وماضيها وجذورها، وما يعبر عن كيانها ووجودها، وهويتها، التي عملت على استرجاعها بوقوفها في وجه الآخر الذي كان يسعى إلى القضاء على كل الأطراف، وعلى كل ما يمثل خصوصيتها، من لغة، ودين، وثقافة...، وتبين ذلك تحديدا من خلال الروايات الجزائرية التي تناولت واقع ما قبل الاستقلال؛ واقع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، أما بالنسبة للروايات الجزائرية التي تناولت واقع ما بعد الاستقلال، فقد صورت واقع الحياة الاجتماعية، وعبرت عن الأزمة فكانت موضوعا بارزا فيها، وقد حاول السرد قراءة الواقع بكل تناقضاته من خلال الشخصيات التي عكست الصراع الفكري والنفسي الذي تعيش فيه.

ورواية "اختفاء السيد لا أحد" لـ "أحمد طيباوي" تعتبر إحدى الروايات التي تناولت بالحديث الأحداث التي طبعت الجزائر في فترة ما بعد الاستقلال، وشكلت الأزمة مرجعية الخطاب الروائي فيها، إذ تشير هذه الرواية إلى جيل أكثر تعبا تعرضت فيه وحدة الوطن واستقراره إلى التصدع والتشظي.

وقبل أن نتحدث عن كيفية تمثيل الكاتب للهوية على متن روايته، لابد أولا من تحديد مفهوم الهوية، فما معنى الهوية؟ وكيف تتجلى في الخطاب الروائي؟

1. مفهوم الهوية:

الهوية مصطلح يصعب تحديد مفهومه، كونه يستوعب الكثير من الدلالات، من بينها أن الهوية هي: "حقيقة الشيء أو الشخص، المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية"[1]، فالهوية بهذا المعنى تشمل مجموع الصفات التي تميز إنسانا عن إنسان آخر أو مجتمعا عن مجتمع آخر، ولكل إنسان هويته الخاصة، كما أن لكل مجتمع هويته الخاصة كذلك.

الهوية هي كلٌّ مركبٌ، تشمل الكثير من الجزئيات في الإنسان والمجتمع، وعناصر الهوية تتمثل في اللغة، والدين، والعادات، والتقاليد، والأعراف.... وغيرها من المقومات الثقافية، والحضارية، والتاريخية لأي أمة من الأمم.

والرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة تعتبر نموذجا مثاليا في تمثُّلها للهوية الوطنية، فقد استطاعت التعبير عن الشعب الجزائري الذي عانى الأمرّين من أجل الحفاظ على هذه الهوية، إذ سعى بكل ما أوتي من قوة الوقوف ضد الاستعمار الفرنسي الذي حاول محوها باستهدافه اللغة، والدين، والموروث الحضاري، وكل ما يعبر عن الذات الجزائرية، وذلك ما يقارب قرنا ونصف قرن من الزمن، لكنه لم يستطع ذلك بفضل مجابهة الشعب الجزائري المناضل لكل محاولاته تلك، خصوصا بعد أن أثمر نضاله المستميت عن تحرير الجزائر واستقلالها عن فرنسا، لكن الجزائر لم تشهد حالة استقرار بعد الاستقلال بسبب تلك الأحداث المأساوية التي عبرت عن التأزم والشقاق بين أطراف المجتمع الواحد، مما أدى بالكتّاب المبدعين إلا الوقوف على سؤال الهوية من جديد، والاقتراب من الذات، والتعبير عن الوضع الذي آل إليه الوطن جراء الاختلاف والصراع بين أفراده.

وقد "اتسمت مسألة "الآخرية" وأسئلة الهوية والاختلاف في الفكر العربي الحديث بطابع التوتر الذي يتجلى أحيانا في التمزق بين ماضي الذات وحاضر الآخر، وهو التمزق الذي يعكس وضعية سيكولوجية وصفها بعض الباحثين بأنها "مأساوية انفصامية"، حيث الذات تشعر بتمزقها بين الحاضر الذي يبرز فيه الآخر الغربي بصورته المزدوجة كمتحضر ومستعمر، وبين الماضي الذي يقبع هناك في زمن مضى وانقضى"[2].

وقد استخدم الروائي الجزائري كل التقنيات الفنية والإبداعية في سبيل التعبير عن موضوعة الهوية في عمله الإبداعي، وكثيرا ما كان يوظف شخصيات تعيش أوضاعا اجتماعية ونفسية مؤلمة، وتجد نفسها في صراع دائم بين الانتماء واللاانتماء إلى المكان الذي تعيش فيه. فكيف تجلت الهوية في رواية "اختفاء السيد لا أحد"؟ ومن هي الشخصيات التي عبرت عنها في هذه الرواية؟ وكيف عبرت عنها؟

2. تمثل الهوية في عتبة العنوان:

يمثل العنوان عتبة نصية أساسية ومهمة، لابد من المرور عليها قبل الولوج إلى عوالم النص، فمنه تتولد معظم دلالات النص وأبعاده الفكرية والإيديولوجية، فـ"العنوان لم يعد مجرد علامة نصية بكماء، خالية من التشويق والإثارة، بل غدا خطابا غنيا بالدلالات، وملفوظا إشاريا ذكي التبلور"،[3] كما أنه "حجم وفضاء: حجمه هو في الدلالات التي يولدها انتظامه. الدلالات التي تولد في حركة الانتظام فتشكل، بالعلاقات بينها، فضاء هذه الحركة"[4]، وغالبا ما يحيل العنوان إلى مضمون النص ويتطابق معه، لكن الرواية ما بعد الحداثية أصبحت تراوغ القارئ من خلال عناوينها، كونها تختار العناوين التي تبدو غير مطابقة لما ورد في النص، لكن بعد قراءة النص والتمعن في أفكاره يكتشف القارئ بأن العنوان يحيل إلى المضمون بشكل أو بآخر.

وبالنسبة لعنوان رواية "اختفاء السيد لا أحد" نلحظ أنه يطابق مضمون الرواية، لكن قبل أن نتحدث عن هذا المضمون، يجب أولا أن نفكك العنوان، وما يحيل إليه، فإلى ماذا يشير هذا العنوان؟

أول ما يلاحظه القارئ وهو يقرأ عنوان هذه الرواية، هو اعتماد الكاتب على تقنية التوثيق الصحفي، وهي تقنية من تقنيات التجريب الروائي المستحدثة في الرواية الحداثية والمعاصرة، إذ يأتي العنوان في شكل خبر صحفي، أو نبأ، كالأنباء التي نقرؤها في التلفزيون أو الصحف و الجرائد، ينبئ عن اختفاء شخص اسمه "السيد لا أحد"، وهذا الشخص يتجلى في الرواية بدون ملامح تقريبا، وقد تعمد الكاتب فعل هذا الأمر، ومن هنا تتشكل في ذهن القارئ عدة أسئلة تثير فضوله وتجذبه للغوص في النص، لمعرفة هوية هذا الشخص، وبذلك يحقق العنوان وظيفته الإغرائية.

لو دققنا في تسمية هذه الشخصية وحاولنا مقاربتها مع الواقع سنجد بأن هذا الاسم من ابتداع الكاتب الروائي وليس اسما حقيقيا، فلا يوجد في الواقع شخص يحمل هذا الاسم، كما أن هذا الاسم الذي اختاره الكاتب لهذه الشخصية له أبعاد دلالية كثيرة، من بينها فقدان هوية الفرد، فالاسم هو بطاقة تعريف أية شخصية في الواقع، وهو الذي يحدد هويتها في كثير من الأحيان، لكن الكاتب اختار هذا الاسم كدليل على أنه يوجد شخص يمثل الفرد الجزائري(على اعتبار أن الرواية جزائرية، كاتبها جزائري، وشخوصها جزائريون) يعيش أزمة الذات في الوطن، ويشعر بالاغتراب عنه، بسبب الظروف التي مر بها، وهي ظروف قاسية جدا، تبدأ من فترة ما قبل الاستقلال إلى فترة ما بعد الاستقلال، فالرواية أشارت باختصار إلى تلك الحقبة التاريخية؛ حقبة التواجد الاستعماري في الجزائر، من خلال شخصية الشيخ المجاهد "سليمان بن النوي". يقول "السيد لا أحد": "أعرف سيرة الشيخ، يستعيد أمامي دون ترتيب ذكريات بعيدة، عن الفقر والطفولة القاسية، وعن الثورة، يمسح النسيان أحيانا كل ذاكرته، فيضيع منه حتى اسمه، إلا الصلاة يواظب عليها"[5]، كما استعرضت الرواية بعض الأحداث التي تعود إلى فترة ما بعد الاستقلال، فترة الأزمة التي مرت بها البلاد، (التسعينيات من القرن العشرين أو العشرية السوداء)، وهي فترة عرفت بتأزم الوضع فيها وتعقده، وقد كان تأثيرها كبيرا جدا على أفراد المجتمع، وفي شعورهم بفقدان ذواتهم، ومعنى وجودهم، ومن ثم فقدانهم لهويتهم. يقول "السيد لا أحد": "في عشرية النار والدموع، كان كل فريق يقتل المذنبين والأبرياء على السواء ليتقرب بهم إلى آلهته الدموية... الله وحده يعلم كم من قربان اختفى أو قتل ولم يعرف عنه شيء بعدها، ولا أي آلهة التهمته"[6].

وما العودة إلى التاريخ إلا محاولة لقراءة الواقع، على اعتبار أن "الرواية التي توظف التاريخ هي رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات"[7]، على حد تعبير "جورج لوكاش".

كما يعبر اسم شخصية "السيد لا أحد" عن ذلك الشخص الذي يعيش ظروفا اجتماعية صعبة، فهو في الرواية لا يعمل، وليس لديه بيت يأويه ويحميه، وكثيرا ما يبيت في الشارع إذا نفذت أمواله، وكثيرا ما يضطر كذلك إلى استئجار بيت ما، ويجد صعوبة كبيرة في تسديد مستحقاته، وكم

من مرة اضطر إلى بيع كتبه من أجل الحصول على المال، "وجدت نفسي مجبرا على بيع كتبي إلى باعة الكتب في ساحة البريد المركزي لأتدبر أموري"[8]، فـ"السيد لا أحد" ورد في الرواية كنموذج للمثقف الذي يعاني التهميش، والبطالة، والضياع، وقد صور الكاتب المعاناة الحقيقية التي يعيشها هذا المثقف وغيره من المثقفين بهدف التعبير عن ما يعيشه أمثاله في الواقع.

وبهذا، فالرواية "تتجاوز الشخصية المثقفة داخل القصص بوصفها حالة فردية إلى تمثيل نماذج لشريحة كبيرة بدأت تأخذ حيزا غير قليل في المجتمعات النامية، بشكل مباشر أو إيحائي، وبكل ما يختمر داخلها من تطلعات وقيم سامية، وتعرض بجلاء تلك الإحباطات التي قد يتعرض لها المثقف بفعل الصدام مع مجتمع تشيع في أوساطه الآفات، ويؤثر الثبات"[9].

يعبر الكاتب من خلال شخصية "السيد لا أحد" عن ما يعانيه المثقف في بلده، هذه المعاناة التي انعكست عليه سلبا، وجعلته كارها للحياة، متشائما، يائسا، منطو على نفسه، لا يحتك كثيرا بالناس من حوله، يراهم تافهين، ولا قيمة لهم "إنه يحرمني من فسحتي الوحيدة، بأن أجلس في الشرفة وأتأمل تفاهة هذا العالم إذ يسترها الظلام، أو لأقرأ على ضوء خافت لا يثير انتباه الجيران. أفعل ذلك بعد منتصف الليل، وأخاف أحيانا حتى من أن يكشفني جمر سجائري"[10]، وكثيرا ما يشعر بالضجر، ولا تتحرك مشاعره اتجاه أي أحد، إلى الحد الذي بدا فيه قاسي القلب بنسبة كبيرة. وهكذا يعبر عن لا مبالاته وقسوة قلبه، بقوله: "صرت إنسانا لا يبالي بأي أمر مهما كان جليلا"[11]، وقوله أيضا: "أصبح قلبي جافا وأقسى من أن ينزل بضعيف مثله رحمة مماثلة"[12].

يتولى "السيد لا أحد" منذ البداية سرد الرواية، وهذا يأتي كدلالة على رغبة الذات في التعبير عن ذاتها، وكل ما يؤرقها، وما تسبب في تشظي هويتها، لتنفتح الكتابة بذلك على "الكينونة المتكلمة خارج أسيجة الواقع والمقتضيات الاجتماعية، وخارج ما تلوكه الخطابات السائدة الحريصة على تنظيم وقولبة العلائق وسنن القول بين الناس"[13].

كما أن الكاتب قد وجد في توظيف شخصية "السيد لا أحد" وجعلها هي التي تتكلم في الرواية ضرورة فنية، بغرض التعبير عن معتقداتها وإيديولوجياتها بمنتهى الحرية، فكما يقول "ميخائيل باختين": "في الرواية الإنسان هو أساسا، إنسان يتكلم، والرواية بحاجة إلى متكلمين يحملون إليها

خطابها الإيديولوجي الأصيل، ولغتها الخاصة"[14]، وقد استطاعت شخصية "السيد لا أحد" تقديم الكثير من التصورات والمواقف عن نفسها وغيرها، ليكمل السارد النصف الآخر من الحكاية.

يحدثنا الكاتب في العنوان وفي متن الرواية عن اختفاء "السيد لا أحد"، وهذا الاختفاء يكون في منتصف الرواية (من خلال الفصل المعنون بـ"مقدمات ساذجة"[15])، عندما يتولى السارد الخارج حكائي أو البراني الحكي –بتعبير "سعيد يقطين"– (باعتباره غير مشارك في أحداث الرواية، وقناعا يختفي خلفه الكاتب) السرد، بقوله: "فاقدا لافتتانه الراسخ بمسيرته المهنية كمحقق لامع، صعد درجات السلم إلى الطابق الأخير متأففا، يقصد مكتب محافظ الشرطة"[16].

بعد اختفاء شخصية "السيد لا أحد" تبدأ رحلة البحث عنه، بسبب جريمة القتل التي وقعت(قتل الشيخ سليمان بن النوي والد صديقه مراد)، وكان على إثرها "السيد لا أحد" المتهم الرئيسي فيها، تأخذ الرواية مسارا طويلا في البحث عنه، من قبل شخوص الرواية، سواء من الذين كانوا رفقاء هذه الشخصية، أو من الذين يعملون في الجهاز الأمني كمخبرين (كالمخبر قادة البياع)، والمحافظ "عبد الوهاب شعال" الذي حيّره أمر هذا الرجل، وبدا له وكأنه يبحث عن لا شيء، عن خيال، عن شبح، لا يستطيع الإمساك به، إذ يتساءل: "هل تلبسه عفريت وطار بجسده؟ هام في الشوارع والمدن كالدراويش؟ من هو وأين يكون؟"[17]، وكذلك الضابط "رفيق ناصري"، الذي يعاني كثيرا خلال مسيرة البحث عنه، إذ يقول محدثا نفسه: "أيعقل ألا يعرفوا حتى اسمه؟ وألا يتفقوا على ملامحه ويتباعدوا في تقدير سنّه إلى حد مثير للسخرية؟"[18].

فشخصية "السيد لا أحد" هي شخصية بدون اسم، وبدون ملامح، كما أن بياناتها الشخصية غير موجودة، خصوصا عندما يخبرنا بنفسه بأنه قد ضيّع بطاقة تعريفه الوطنية ولا سبيل للوصول إليه، وفي هذا دلالة على غياب الهوية وانعدامها. يقول: "وأنا لا يمكنني تولي الأمر لأسباب قديمة. الإجراءات القانونية تتطلب وثائق، وأنا دون هوية، ولا أريد أن أكون أحدا على الإطلاق"[19]، ويقول أيضا في مقطع سردي آخر: "سقطت بطاقتي في مرحاض المحطة وتبللت، استخرجتها، ولما وجدتها تالفة تماما.. رميتها مجددا وسكبت دلو ماء. نسيت اسمي لما سألني عنه في البداية، كنت أمنح نفسي اسما مختلفا في كل مكان أرحل إليه"[20].

إن مقاربة العنوان في علاقته بالهوية سيجعلنا نقول بأن الكاتب عندما أخبرنا عن اختفاء "السيد لا أحد"، وفقدانه لبطاقته الوطنية، يبدو وكأنه يخبرنا عن فقدان الهوية، هوية الفرد الذي يعاني كثيرا في البلد الذي يعيش فيه، وعندما تتأزم أوضاعه أكثر فأكثر فإنه سيختفي، إما بالهروب إلى جهة ما، أو الهجرة إلى بلد ما. وهذا ما عبرت عنه شخصية "السيد لا أحد" التي كانت تهرب من مكان إلى مكان، كما كانت لديها رغبة كبيرة في الهجرة خارج البلد دون العودة إليه. تقول: "أسافر بلا عودة"[21]، وكذلك الحال بالنسبة للكثير من الشخصيات في الرواية، كشخصية "مراد" صديق "السيد لا أحد" الذي هاجر إلى ألمانيا، وقرر أن لا يعود إلى الأبد، حيث يقول عنه "السيد لا أحد" بأنه: "باع سيارته ودفع رشوة كبيرة لموظف في السفارة الألمانية لقاء الحصول على التأشيرة. أخبرني بعدها أنه سعيد جدا"[22]، وكذلك شخصية "سفيان ثابتي" الصحفي صديق "رفيق ناصري" الذي هاجر إلى كندا، وقرر أيضا أن يبقى فيها حتى يصبح صحفيا لامعا. يقول الراوي: "يلح عليه صديقه الهارب حديثا إلى كندا، سفيان ثابتي، ليلحق به، يحدثه عن طموحه في أن يصير صحفيا لامعا، هناك حيث لا حدود للحلم الإنساني، يؤمّن على قوله"[23]، وكذلك شخصية الطبيب الذي تعرف عليه "السيد لا أحد" في المستشفى، وأبدى له رغبة كبيرة في الهجرة بسبب ظروف العمل التي لا تناسبه. يحدثنا "السيد لا أحد" عنه بقوله: "عند حلول الظلام قصدت مكتب الطبيب، كان قد وقع على شهادة خروجي، وجدته مرتخيا على كرسيه بسبب الحر والتكييف المعطل، ظروف العمل لا تناسبه ويفكر في الهجرة، ... هكذا أخبرني وتحدث معي كأيّ عاقل من أصدقائه"[24].

الملاحظ عند قراءة الرواية أن الكاتب يتماهى مع شخصية "السيد لا أحد"، ويعبر عن الكثير من الأفكار، ويعرض الكثير من التصورات، كما يتماهى مع شخصية السارد الذي يعتبر ساردا ثان للرواية، ومع الكثير من الشخصيات في الرواية، وفي كثير من الأحيان تلتبس علينا الأمور فلا نكاد نمسك بخيط السرد وصاحبه، بسبب تقنية الانتقال السريع في السرد وتسليمه لشخوص الرواية، فتارة يسرد "السيد لا أحد"، وهو الذي يبدأ فعل السرد في الرواية من خلال ضمير المتكلم "أنا"، وتارة يسرد السارد الخارج حكائي(الذي يكتفي بالسرد فقط)، من خلال ضمير الغائب "هو"، وتارة تسرد

شخصيات الرواية(مبارك، عثمان لاقوش، رفيق ناصري،...)، وهكذا يتناوب الساردون في سرد أحداث الرواية. وهذا يقتضي قراءة متأنية ومتمعنة لكل تمفصلات الرواية.

تجدر الإشارة في نهاية تحليلنا لعنوان رواية "اختفاء السيد لا أحد" أنه لا يمكن أبدا تفسير العنوان دون قراءة الرواية، وقد رأينا أنه توجد علاقة كبيرة بين العنوان والمضمون، فالعنوان يحيل إلى المضمون، والمضمون يحيل إلى العنوان، "وكل شكل أدبي (وكل شكل فني كبير بوجه عام) قد ولد من الحاجة إلى التعبير عن مضمون جوهري"[25] كما يقول "جورج لوكاش".

3. تمثل الهوية في متن الرواية:

بعد الانتقال من العنوان إلى متن الرواية، نجد بأن الكاتب قد قسّم روايته إلى قسمين أو فصلين، وتحت كل عنوان رئيسي لكل قسم منها عناوين جزئية، تندرج تحت هذه العناوين قصص عن الشخصيات، وسيرتها الذاتية، وأحداث مهمة متصاعدة. وهذه العناوين تلخص مضمون القصص المحكية في الرواية، وهي كالآتي:

1. (القسم الأول) الرجل الذي سرق وجهه ورحل[26].
   1.1 مراوغة[27].
   2.1 تكالب[28].
   3.1 شفافية[29].
   4.1 ابتذال[30].
2. (القسم الثاني) الجحيم يطل من النافذة[31].
   1.2 مقدمات ساذجة[32].
   2.2 أحدهم يخفي سرا[33].
   3.2 بوصلة القلب[34].
   4.2 مجرد أقدار[35].
   5.2 رصيف ضيق[36].

وإذا أخذنا أول قسم من الرواية على سبيل المثال، والذي عنوانه "الرجل الذي سرق وجهه ورحل"، والذي يأتي كدلالة على رجل دون ملامح تماما، وبما أن كل إنسان يعرف بصفاته وملامحه، فإن شخصية "السيد لا أحد" لم تذكر صفاتها إلا في القسم الثاني من الرواية، لكنها صفات مختصرة جدا، لا تعرّف كثيرا بالشخصية، وإن كان عدم ذكر الملامح والصفات يدل على أن الرجل بدون هوية، فبعد أن كانت له ملامح أصبح دون ملامح بعد هروبه ورحيله.

وتحت ذلك العنوان الكبير عنوان جزئي هو: "مراوغة"، وهذا يدل على أن الشخصية التي سيقبل عليها القارئ هي شخصية سلبية وفيها كل الصفات السيئة، وبالفعل قدّم الكاتب شخصية "السيد لا أحد" بكل سلوكاتها السلبية، كالسرقة، والضرب، والمراوغة، وشرب الخمر... فبدا بهذه السلوكات شخصا غير سوي على الإطلاق.

1.3 شخصية السيد لا أحد: سرد الذات وأزمة الهوية:

تعدّ الشخصية الهامشية نوعا من أنواع الشخصيات الروائية، وهي في الرواية لا تقوم بالكثير من الأدوار، لكن هذا لا يعني أنها ليست مهمة، بل هي مكون أساسي، ولا يمكن التخلي عنها على الرغم من محدودية أدوارها، فهي "كما في الواقع البشري لا يمكن الاستغناء عنها وكذلك في الرواية، لكنها في الغالب تكون لها أدوار مكملة للشكل العام للرواية، ويمكن إغفال أحدها في أي لحظة دون أن ينتبه لها القارئ أو يعير غيابها أي اهتمام"[37].

وشخصية "السيد لا أحد" نموذج للشخصية الهامشية، كونها مهمشة في الحياة، لا يأبه بها أحد، ولا قيمة لها بالنسبة لكثير من الناس، فقد مثلت شخصية المتسول في الشارع، الذي لا يجد ما يأكل، ولا يجد أين يبيت، وليس له مكانة في مجتمعه، إذ يعيش ظروفا مزرية للغاية، ولا يجد كيف يخرج منها. يقول "السيد لا أحد" محدثا نفسه بطريقة يدين بها نفسه، ويرى بأنه يمثل حثالة المجتمع: "لم يخلف كلامه أي فضول بداخلي لمعرفة أمر يعتقد أنه سيجعلني ملكا. رجل مبالغ فيه، وعلى الأغلب مشبوه وعليّ الحذر منه.. ملك؟ ذلك يقع عمليا خارج دائرة تطلعاتي، دائرة ضيقة ومثيرة للسخرية، ويستحق صاحبها رثاء خاصا. لا يهم، أنا عبد قذر، لا يعرفه أحد ولا يأبه له، وهذا يرضيني تماما"[38].

والجديد في إبداع الكاتب أنه التفت إلى هذا النوع من الشخصيات، وأعارها اهتمامه الكبير فوظفها وجعل لها الكثير من الأدوار في الرواية، إلى الحد الذي أصبحت فيه محورا مركزيا في السرد بعد أن كانت هامشية تعيش في الظل على هامش الحياة، فقد أخذت شخصية "السيد لا أحد" مكانة الشخصية الرئيسية باعتبارها محور الأحداث في الرواية، فضلا عن أنها محور البحث والتقصي. وهذا هو الجديد في السرد، حيث أصبح ما هو هامشي في الواقع والرواية له دور كبير على مستوى الحكي، وذلك بفضل إبداع الكاتب وبحثه عن كل ما هو مستحدث، بطرقه لباب التجريب في الرواية بطريقته الخاصة والفريدة.

وما اعتماد الكاتب على هذا النوع من الشخصيات إلا بهدف رغبته في تعبيرها عن رؤيتها للعالم، إذ تقيم هذه الرواية من خلال هذه الشخصية " تشابكا على صعيد الرغبة في انتهاك الشكل والتعبير بصورة جديدة عن العالم، أي بصورة مختلفة عن تلك الطريقة التي عبرت بها "الرواية الواقعية" عن العالم"[39].

ومن جهة أخرى كذلك، تمثل شخصية "السيد لا أحد" الشخصية الإشكالية بتعبير "جورج لوكاش" و"لوسيان غولمان"، فـ"السيد لا أحد" يمثل البطل الإشكالي الذي يرى أنه يعيش في مجتمع منحط ويبحث عن القيم الأصيلة فيه، قيم العدل، والخير، والحق... وغيرها من القيم، هذا البطل الذي يعيش حالة الاغتراب، ويفضل العزلة على الانخراط في المجتمع الذي تنعدم فيه القيم الإنسانية النبيلة، وتنتشر فيه قيم الخبث، والاحتيال، والنفاق، ... وغيرها من القيم التي تعبر عن انعدام الأخلاق. يقول "السيد لا أحد": "الوحدة سيئة ومخالطة الناس أسوأ. لم أكلم أحدا منذ أيام طويلة، بعت هاتفي، ليس لدي من أكلمه أو يكلمني"[40].

كما أن هذه الشخصية تعيش حالة استلاب، فهي مسلوبة الإرادة والحرية في الوطن الذي تعيش فيه، فلا تجد حريتها، ولا قيمتها، ولا سعادتها لذلك فهي تهرب من مكان إلى مكان، بحثا عن حريتها وإن كانت دائمة الشعور بأنها مطاردة. والحقيقة "أن كل إنسان مغترب بطريقة أو بأخرى. فالاغتراب على درجات من الشدة "[41]، و"قد تتحول الهوية إلى اغتراب، تنقسم الذات على نفسها،

وتتحول مما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن، من إمكانية الحرية الداخلية، إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية، بعد أن يصاب الإنسان بالإحباط"[42].

كما أن شخصية "السيد لا أحد" هي شخصية إشكالية لأن الرواية في البداية لا توضح كثيرا بشأن هذه الشخصية، فهو تارة درويش أو بهلول، أو متسول يجول في الشوارع ويطلب الأكل، وتارة لصا، وتارة زبالا، وتارة مثقفا، فلا نفهم من تكون هذه الشخصية؟ ليتأكد لنا بعد المضي قدما في القراءة بأنها شخصية مثقفة جرتها الظروف إلى أن تعيش حياة مزرية، كما نرى بأن هذه الشخصية تحوي جميع أطياف المجتمع، أو تمثل لوحة فسيفسائية معبرة عن حال الكثير من الشخوص في الواقع. يقول "السيد لا أحد" معبرا عن وضعه الاجتماعي القاسي: "لا شيء فيّ يستحق الرثاء. خضت الحياة بكل إكراهاتها، اشتغلت زبالا لثلاث سنوات، لم يشفع لشريد مثلي مستواه الجامعي ولا كونه إنسانا، واستغلني من استطاع أن يفعل ذلك. نسيت تقريبا كل ما تلقيته في الجامعة، ولقنتني الظروف دروسا أكثر رسوخا. زبال من الباطن، يتقاضى أحدهم الراتب ويمنحني جزءا منه. حمّلت القمامة فوق الحمير في أزقة القصبة الضيقة، وأكلت بقايا طعام كنت أجده في المزابل، تقيأت أول مرة ثم تعودت عليه، نسيت كرامتي للأبد، لا معنى للكرامة وأنت جائع. غريزة البقاء أقوى. زبال من الباطن يستأجر غرفة مهترئة الجدران والسقف، وينام على فراش قذر.. كنت برغماتيا أكثر من أي أحد في العالم. بشر بلا عدد يقتاتون من المزابل، لم أكن أحسن منهم في شيء..."[43].

تبدو شخصية "السيد لا أحد" شخصية عنيفة وعدوانية، تعبر عن رغبة القتل دائما، وكل محاولات الإجرام، كقوله عن "الشيخ سليمان بن النوي": "يستحق هذا الشيخ ميتة رحيمة، وقد فكرت جديا، قبل أسبوع، أن أدس له شيئا في الطعام، ثم تراجعت"[44]، وقد كان ذلك التعبير من خلال تقنية حديث النفس، إذ تعبر عن كل ما يجول في ذهنها من أفكار وتصورات، ومن خلال حديث النفس نتعرف على هذه الشخصية جيدا، عن قسوتها وعدوانيتها، وإن كانت تنفي دائما هذه العدوانية بقولها: "أملك سكينا في مطبخي، لم أكن في يوم من الأيام عدوانيا، لكني أفكر جديا في الاستعانة به خارج استخداماته المعتادة، إن استمر هذا الشيخ المقرف في ثرثرته. سأقطع لسانه، إذا لزم الأمر. علبة سجائري فارغة، والجو كئيب ومثير للعدوانية، وهو يعطيني –فوق ذلك– أسبابا وجيهة

للفتك به. قد يكون اقتلاع أحدهم من الحياة حلا معقولا حتى بالنسبة لرجل مثلي لا يملك سوى أسباب تافهة ليفعل ذلك"[45]، وهذا عندما يعبر عن رغبته في قتل شخصية "مبارك" التي كثيرا ما كان يجزع منها ويعبر عن قرفه منها.

وكثيرا ما كان "السيد لا أحد" يتهرب من الأسئلة في كل مكان يحل به، إذ يرى تلك الأسئلة مستفزة تثير غضبه ويرفض ذلك الفضول اتجاهه، كمن سأله هذه الأسئلة (شخصية مبارك): "من أين أنت؟ ولم لم تتزوج.. ماذا تعمل؟ أين أهلك؟"[46]، وهي الأسئلة التي يطرحها القارئ كذلك، ولا يجد لها إجابة، لأن الكاتب تعمد إخفاءها عنه، كدلالة على أن الشخصية بدون معالم، وبدون هوية تدل عليها، لا نعرف تاريخها الشخصي، فهي غامضة، مجهولة، معتمة، إشكالية تطرح الكثير من التساؤلات.

لكن الرواية تكشف قليلا عن شخصية "السيد لا أحد" في النصف الثاني منها، وتعطي بعض الملامح لكنها تبقى غير كافية، حتى بالنسبة للضابط "رفيق ناصري" الذي أتعبه البحث عن هذه الشخصية، ولم يجد طريقا للوصول إليها. يقول "قادة البياع" مخاطبا الضابط: "كان يجلس أمام الطاولة ذاتها قرب النافذة طيلة عام كامل، كانت محجوزة له، يدخل خافضا بصره، غير آبه بأحد يتأبط جريدة مطوية، وعلى الهيئة نفسها دائما بسروال الجينز الأزرق الباهت وبالسترة السوداء، وبلحيته الخفيفة التي لا تكبر أبدا وببقايا شعر أعلى رأسه تشي أن لقب أصلع صار حقا عليه"[47].

هذه المواصفات القليلة توحي بأنه شخص في الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمره، كما توحي بأنه مثقف، وهادئ، وخجول، وانطوائي.

2.3 زمن الأزمة وما بعده وقضية الهوية:

واكبت الرواية الجزائرية التحولات التي عرفتها الجزائر في مرحلة ما بعد الاستقلال (أي بعد سنة 1962)، وأرّخت فنيا للأحداث السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي شكلت منعرجا حاسما في تاريخ الجزائر المعاصر؛ إذ شهدت فترة التسعينيات من القرن العشرين حربا دموية بين أبناء الوطن الواحد بسبب الصراع على السلطة، والرغبة في السيادة، وتولي كرسي الحكم.

وقد عُرفت هذه الفترة بتسميات عديدة منها: العشرية السوداء، عشرية النار، زمن الأزمة، زمن المحنة، زمن الفتنة، سنوات الجمر... وكلها لها دلالة على تلك الفترة التي استغرقت عشر سنوات، وتأزمت فيها أوضاع الجزائر، على كل الأصعدة: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، كما دخلت الأطراف السياسية في مواجهة دامية هددت أركان الدولة وأمنها، وكان ضحيتها الأول المجتمع الجزائري، الذي عاش واقعا مأساويا مؤلما اكتوى بناره أمدا طويلا، وفقد على إثره الغالي والنفيس من بنيه وذويه.

والجدير بالذكر، أن معظم الروايات الجزائرية التي تناولت واقع ما بعد الاستقلال عادت إلى أسباب الأزمة، فأشارت إلى "أحداث 5 أكتوبر 1988 التي مثلت نقطة انعطاف كبرى في تاريخ الجزائر؛ إذ تحول النظام السياسي الجزائري في هذا الزمن، من نظام الحزب الواحد إلى التّعددية الحزبية"[48]، ووقع صراع كبير بين الأحزاب السياسية. هذا الصراع الذي أدخل الجزائر في دوامة الإرهاب الدموي خصوصا بعد إلغاء السلطة لفوز الحزب الإسلامي (حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ) في الانتخابات التشريعية سنة 1992، ذلك أن "الطبقة الحاكمة في الجزائر كانت تريد الفوز للمحافظين، فتقرر إبطال الانتخابات وتعطيلها مما أدى إلى ثورة غضب عارمة في الجزائر، فحدثت أعمال شغب، بعدها حدثت أعمال العنف والإرهاب كردة فعل على ما حدث"[49].

ورواية "اختفاء السيد لا أحد" واحدة من تلك الروايات التي تحدثت عن المأساة الجزائرية في فترة العشرية السوداء، إذ تندرج في إطار أدب الأزمة، كونها صورت الواقع المأزوم، وحاولت تفسير الأزمة التي وقعت فيها الجزائر، والعنف الذي طال المجتمع الجزائري، وهدد كيانه ووجوده وهويته.

لقد ركز كاتب هذه الرواية بشكل كبير على زمن الأزمة، باعتباره زمنا ترك أثره على نفسية أفراد المجتمع الجزائري، وقد سار في ذلك على وتيرة الكثير من الكتّاب الجزائريين في اهتمامه بمعاناة المثقف في ذلك الزمن، وهذا من خلال شخصية "السيد لا أحد"، وشخصية "عثمان لاقوش"، وشخصية "سفيان ثابتي"، وشخصية "رفيق ناصري".

كل هذه الشخصيات عبرت عن حالة المثقف الجزائري الذي مرّ بأزمة نفسية حادة، اعترته خلال الحقبة الدموية التي شهدتها بلاده، والتي سادها الاختطاف، والقتل، والتنكيل، والكثير من

الجرائم التي قام بها الإرهاب في حق أهله، والتي لا يمحوها الزمن ولا الذاكرة لفظاعتها ووحشيتها وهمجيتها.

يستدعي "السيد لا أحد" في الرواية تلك الحادثة التي نجا فيها بأعجوبة، والتي لا يذكر تفاصيلها بدقة، فتبقى محل السؤال من قبل القارئ، حيث اختطف من قبل مجموعة من الأشخاص لم يذكر من يكونون بالضبط، وكاد أن يلقى حتفه على أيديهم، لولا ذلك الرجل "عمي صالح" الذي أنقذه من الموت المحتم. يقول: "اختطفت من على ناصية الشارع الوحيد في قريتنا، هناك في سرج الغول شمالي سطيف، مع مراهقين آخرين. كانت فجيعة لأهلي، وكان الزمن سيتولى معالجتها كما يفعل دائما، لكني كنت أقرب ما أكون للخلاص من أي لحظة أخرى في حياتي. لم يعرف ذلك الرجل الذي كان يتعاون مع فرق الموت، وأنقذني منهم لما عرفني، أي قطار آخر للموت وضعني على سكته"[50].

يعكس هذا المقطع السردي أزمة المثقف خلال العشرية السوداء، وما كان يعانيه من قبل الجماعات المتطرفة التي كانت دائمة الترصد له، تسعى إلى اغتياله والقضاء عليه، كما يرسم هذا المقطع حالة الرعب التي كان يعيشها هذا المثقف، وكيف كان يسعى دائما إلى الهروب حتى لا يلقى حتفه.

تتوالى الاسترجاعات في الرواية، في شكل استرجاعات خارجية تظهر أثر تلك الحادثة على نفسية "السيد لا أحد" الذي يقول: "استرجعت نكبتي في شكل كوابيس مفزعة طيلة أشهر، واستطعت أن أنسى وإلا لكنت انتحرت. الموت بطريقة جبانة أرحم من مواجهة الألم وأنا أعزل من كل شيء. لست حزينا على أني نسيت ما حدث، وحتى إن تذكرته فسيبقى سرا يرافقني إلى القبر"[51].

لا يسرد "السيد لا أحد" قصة محاولة اغتياله فحسب، بل يسرد لنا قصة حياته كلها (ابتداء من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب)، فتكون الرواية في شكل الرواية السير ذاتية، كما تكون في شكل الرواية الدائرية، التي تعمد إلى خلخلة الزمن، فلا تتبع الزمن الطبيعي ماضي –حاضر– مستقبل، بل يبدأ سرد الأحداث من الآخر؛ من الحاضر ليعود إلى الماضي القريب، ثم الماضي البعيد، ثم يعود إلى الحاضر من جديد، وهكذا دواليك...

يتخلل سرد "السيد لا أحد" لقصة حياته السرد التاريخي، الذي يعتمد فيه على ذكر تواريخ وقوع الأحداث بصراحة، وربما يفعل ذلك حتى لا يضلل القارئ، ويجعله على علم بالإطار الزمني الذي تتحرك فيه أحداث الرواية، ومن أمثلة الأحداث التاريخية التي ذكرها الكاتب على لسان سارده قوله: "عام 1991، شاب قادم للحياة، كم كان لله نصيب من قلبه. اعتقل مع من اعتقلوا..."[52].

فالرواية تستدعي هذا الحدث التاريخي الذي يكشف عن سلسلة الاعتقالات التي طالت الكثير من الشباب خلال المظاهرات المنددة بأحقية الحزب الإسلامي في الحكم بعد مشاركته في الانتخابات عام 1991، وما تبع هذا الحدث من أحداث مأساوية كان لها أكبر الأثر في أفراد الشعب الجزائري، معتمدة في ذلك على تقنية الاسترجاع الخارجي، لإيرادها أحداثا خارجة عن أحداث الرواية.

وما استدعاء التاريخ في الرواية إلا محاولة لفهم الماضي، وقراءة الحاضر، ثم استشراف المستقبل، وهذا ما قامت به رواية "اختفاء السيد لا أحد" التي بحثت عن جذور الأزمة وأسبابها، وأثرها على الفرد الجزائري بطريقة فنية متميزة يغلب عليها طابع الحزن والتشاؤم.

الجدير بالذكر أن معظم الكتابات الروائية التي تناولت واقع التسعينيات في الجزائر "قد ميزتها مواصفات منها: استخدام لغة تحمل الكثير من التشاؤم والسوداوية والإغراق في الغموض والمجهول، إضافة إلى رؤى تعكس الخوف من المستقبل والرفض للموت المجاني والشعور بالانتحار المبرمج، إنها مليئة بالفجيعة، ورافضة للسياسة وتسعى للكشف عن مؤامرة غير واضحة، فضلا عن تشعبها بالأسئلة التي تبقى معلقة إلى حين"[53].

والمتأمل في لغة رواية "اختفاء السيد لا أحد" يجد بأنها لغة مشحونة بالتوترات النفسية، إذ عبرت عن القلق والخوف الذي كان يعيشه المثقف الجزائري في فترة الأزمة، هذه الأزمة التي أحدثت جرحا عميقا في نفسه، فجعلته يشعر بالضعف والانكسار، وأصبحت لديه رغبة جامحة في الموت والانتحار، للتخلص من العذاب النفسي وما يتداعى في ذاكرته من صور مريعة وقاتمة. يقول: "أنا أيضا أستحق أن أرتاح، لست مؤهلا للاهتمام حتى بنفسي. يتملكني مؤخرا رعب حقيقي من أن أكبر، يجب أن تتوقف حياتي قريبا، أو أن أختفي على نحو ما"[54].

لقد قامت هذه الرواية باستنطاق ذاتية الإنسان، وإحباطاته، وانهزاماته، كما أنها لم تغفل عن الغوص في مجاهل روحه المتمزقة، وسلطت الضوء على وضعه الاغترابي الذي يعبر عن يأسه وشعوره بفقدان ذاته في خضم ذلك الزمن؛ زمن الحرب فجاءت الرواية بطرح جديد، حيث سيطر عليها " اللامعنى، واللاهدف، واللاانتماء، واليأس، والعزلة الاجتماعية، والغربة عن الذات، وفقدان الهوية"[55]، فالمقطع السردي الآتي يظهر رغبة "السيد لا أحد" الملحة في الموت، فهو لا يشعر بطعم الحياة ولا يمكنه الانخراط في المجتمع بسبب هول ما وقع له، كما أن الحياة الصعبة التي أصبح يعيشها جعلته في كثير من الأحيان يتمنى الموت على بقائه حيا. يقول: "دسست بدني تحت الفراش لأموت موتا صغيرا. رأسي على الوسادة ثقيل، ليته قطع في تلك الحادثة القديمة. كنت لأكون الآن هناك في الأعلى أضحك طويلا على الأقدار التي نهبت حصتي من الحياة"[56].

ويقول أيضا في موضع آخر من السرد: "ما كانت حاجتي بالحرية؟ سؤال طرحته متأخرا بندم غير قليل، في الليلة ذاتها التي قررت فيها استرجاع حريتي بأي ثمن"[57].

هكذا، وقفت رواية "اختفاء السيد لا أحد" على وضع المثقف في مرحلة ما بعد الحرب؛ أي ما بعد العشرية السوداء، فصورت خيبة أمله، جراء تهميشه وإقصائه، كما عبرت عن شعوره الدائم بالاغتراب عن الوطن، إلى الحد الذي بدا فيه غريبا عنه، وكأنه لا ينتمي إليه، إذ ليس لديه أي حق من حقوق المواطنة فيه، وتبعا لذلك الشعور أصبح يفضل الابتعاد عن المجتمع الذي لا يفهمه، معبرا في كل مرة عن رغبته في الهجرة إلى بلد آخر يحتويه ويقدره ويوفر له كل ما يرغب فيه.

كما لم تغفل هذه الرواية خلال حديثها عن وضع المثقف في مرحلة ما بعد الحرب، واقع المجتمع الجزائري وما فيه من ظواهر اجتماعية سلبية(الرشوة، والسرقة، ...)، ذلك أن الرواية "مرآة أدبية للمجتمع غالبا؛ إذ هي قراءة ظاهره، وكشف مستوره، وملامسة جراحه، ورصد حكاياته الظاهرة والباطنة،"[58] فقد رصدت رواية "اختفاء السيد لا أحد" الكثير من الممارسات غير الأخلاقية، وهذا من خلال الراوي الذي يعتبر لسان حال الكاتب، حيث عبّر عن سخطه وجزعه من تلك الممارسات، وهذا عندما تحدث عن ما تعرض له الضابط "رفيق ناصري" من تهديدات بالقتل عندما حقق في قضية نهب العقار، وهي قضية شائكة ينمّ التعبير عنها عن وجود الإقطاع في البلاد. وهكذا يسرد

الراوي حيثيات هذه القضية: "رأى قطعة الأرض التي فتحت أمامه أبواب الجحيم. تشهد سيارته ذاتها وما لحق بها كم أن تهديداتهم كانت جدية أكثر مما توقع. اقتطع أحد النافذين الكبار جزءا من أرض، منحت لفلاح عن طريق عقود الامتياز الفلاحي، ليبني عليها فندقا وملهى. خوفا أو تواطؤا، لم يبد الفلاح صاحب الامتياز اعتراضا. بدأ بتهيئتها ووضعت الأسس مع أن تراخيص البناء في العاصمة أوقفت تماما، وخلال دورية عادية لشرطة العمران حرر محضرا ليدفع إلى العدالة. في ضحى يوم مشمس ترك سيارته... ارتخى كليا ليأتي بعدها من يخبره وسط البخار بأن سيارته قد هشمت، وفي الغد كان المحافظ يستدعيه ليفهم ما حصل"[59].

تحدث الكاتب من خلال هذا المقطع السردي عن الفساد المستشري في المجتمع، وانتهازية بعض الأشخاص وأنانيتهم التي تمظهرت من خلال هذه التجاوزات غير القانونية التي تضر بالصالح العام، لكن مواجهة هذه التجاوزات صعبة للغاية، على اعتبار أن كشفها والتصدي لها يكلف الكثير، وهذا ما حدث لـ"رفيق ناصري" الذي وجد نفسه في صراع كبير مع قوى الشر، بين الامتثال للواجب الذي يفرض عليه التصدي لها، وبين حياته المعرضة للخطر في حال الاستمرار في ردعها، إذ يستكين في نهاية المطاف، ويقرر التوقف عن التحقيق في تلك القضية، بل ويقدم استقالته من الجهاز الذي يعمل فيه، ويختفي عن الوجود كما فعل "السيد لا أحد".

لقد صورت الرواية الوضع النفسي الرهيب الذي مرت به شخصية المثقف "رفيق ناصري" جراء تلك القضية، إذ فقدت الرغبة في العمل، وأصبحت كارهة للحياة، ترى بأن حياتها بلا معنى، وأن عملها بلا جدوى، فتعيش هي الأخرى وضعا اغترابيا، إذ "يتجسد الاغتراب في أشد حالاته عندما يحيا الإنسان بين الناس ويتملكه شعور عنيف بعدم جدوى الحياة، كونه والناس قد أصبح على طرفي نقيض، فالإحساس بالآخر مفقود تماما، إذ يغترب الفرد بعدما يصدم بالناس فيفقد الإحساس بوجودهم من حوله"[60].

وبهذا تشير الرواية مرة أخرى إلى أزمة الذات في مواجهة الواقع، وشعورها بفقدان معنى وجودها، ومن ثمة هويتها، و"فقدان الهوية أي الاغتراب يؤدي إلى ردي فعل متضادين مثل: العزلة والانطواء أو الانتشار والعنف"[61]، إذ ينعزل "رفيق ناصري" عن المجتمع، ويبتعد عن العمل بسبب القوى المضادة

التي تقف سدا منيعا في كل محاولة للإصلاح والتغيير والقضاء على الفساد. يقول الراوي مبررا سبب اختفاء "رفيق ناصري" ومؤكدا وجه الشبه الكبير بينه وبين "السيد لا أحد": "يقتفي خط سير رجل مطموس الأثر كليا تقريبا.. ربما كان مثله، يشبهه.. نسخته الأكثر شجاعة في رفض التطويع والامتهان لحياة ليست على مقاس بداياته. آثر الرحيل دون أثر.. قفز في هوته الداخلية ولم يسمح لأحد بأن يجعله محشوا ومثقلا بتفاهة لا حدود لها. ها هو القدر يقدم له نموذجا يحتذى به، وعليه أن يقتفي سيرة اختفائه ويخط طريقا مختلفة، لينتهي مثله إلى النسيان ويرتاح. اختفاء أكرم للنفس من وجود مزيف ومكذوب.. ممسوخ المعالم، ينجو من ينجو منه، ولا عزاء للمترددين من أمثاله"[62].

إن الهروب يدل على الجبن، وشخصية "رفيق ناصري" أظهرت بهذا الفعل بأنها شخصية ضعيفة غير قادرة على مواجهة الصعاب، لكنها أثبتت من ناحية أخرى بأنها شخصية نزيهة وأصيلة، ذات مبادئ وقيم، ترفض الخضوع والتطويع لما فيهما من خيانة للواجب وللوطن. إنها نموذج كذلك للشخصية الإشكالية (أو البطل الإشكالي) التي تعيش في مجتمع منحط، تنتشر فيه الآفات والسلوكات السلبية، تسعى إلى القضاء عليها، لترسيخ قيم الحق والخير والعدل...، لكنها تجد نفسها مسلوبة الإرادة وعاجزة عن إحداث أي تغيير، فتقرر الانسحاب والاختفاء على مواجهة الخراب أو البقاء والتصالح معه، لتمثل بذلك نموذجا للشخصية الهروبية بتعبير "لوسيان غولدمان".

تتداخل شخصية "رفيق ناصري" مع شخصية "السيد لا أحد" إلى الحد الذي يصعب الفصل بينهما، أو تمييز أحدهما عن الآخر، ويتجسد هذا التداخل في نهاية الرواية، عندما يقدّم الكاتب من خلال الراوي المشهد الكوميدي الساخر الذي يقلل بنسبة كبيرة من حدة الحزن والتشاؤم اللذان يطبعان الرواية. هذا المشهد يستعرض فيه أجواء العرس الذي حضرته "هدى" زوجة الضابط "رفيق ناصري"، والذي تزوجت خلاله صديقتها "دليلة علاق" بشخص لم يذكر الراوي من يكون بالضبط، إذ يفتح باب التخمينات على مصراعيه. يقول الراوي: "بعد أقل من ساعة استأذنت في المغادرة فأصرت عليها العروس لتبقى حتى ترى عريسها، بدت في فستانها الأبيض الذي ضاق بجسمها المتكدس مثيرة للضحك، ولما دخل لتلتقط لهما الصور، تبادلت النساء السخرية بشأنهما. كانت دليلة علاق سعيدة بذلك النحيل، وهي تجره من ذراعه، مثل طفلة صغيرة اشترت أول دمية لها. أما

هدى فهمّت بمغادرة الحفل بعدما كلمها عبد الوهاب شعال وطلب منها الحضور فورا، ولم تنتبه لدخول العريس، لكنها عندما رفعت رأسها ورأته، عرفت أن الوقت قد تأخر كثيرا ليتدارك الجميع أي شيء.

-تمّت-"[63].

المتأمل لهذا المشهد السردي سيبدو له بأن نهاية الرواية ليست واضحة بل ضبابية ومفتوحة على العديد من التأويلات، فلا نعرف الشخص الذي ارتبطت به الممرضة "دليلة علاق"، إذا كان "السيد لا أحد" الذي كان قد وعدها بالزواج أو الضابط "رفيق ناصري" زوج "هدى"؛ التي أخذت شوطا طويلا في البحث عنه لتخبره بحملها منه، وإن كان الافتراض الأكبر بأن الشخص الذي ارتبط بـ"دليلة علاق" هو "السيد لا أحد"، فالرواية تتوفر على مجموعة من الإشارات التي تؤكد هذا الأمر قبل تقديم مشهد حفل الزفاف. يقول "السيد لا أحد" متحدثا عن "دليلة": "أعترف أن منظرنا معا كان مثيرا للسخرية"[64].

ويقول أيضا: "اتفقنا على أن تساعدني على الهرب، أختفي لأيام، ثم أقصد شقة بباش جراح زودتني بعنوانها. ننتظر حتى تنسى الحكاية، ثم نتزوج وتتدبر هي كل شيء"[65].

لكن دهشة "هدى" في نهاية المشهد من الشخص الذي رأته، تربك القارئ وتجعله يعتقد بأن زوجها "رفيق ناصري" هو الذي ارتبط بصديقتها "دليلة". وأيا كان هذا الرجل فإن القصد من ظهوره في آخر الرواية يؤكد في اعتقادنا النظرة التفاؤلية للحياة، وحب البقاء في الوطن، ومواجهة المشاكل بجرأة وشجاعة، فلا مجال للاستمرار في الهروب والاختفاء، بل عيش الحياة بحلوها ومرها، وكيفما كانت الظروف والأحوال.

تبقى نهاية الرواية مفتوحة على العديد من القراءات، وتطرح الكثير من التساؤلات، وتدعو إلى ملء الكثير من الفراغات المسكوت عنها، وهي حيلة بارعة من الكاتب اتجاه متلقيه، تدفعه إلى تشغيل ذهنه والبحث عن إجابات حول ما تم طرحه، وإنجاز نص على نص* كما يقول "رولان بارت".

خاتمة:

في الختام، يمكننا القول بأن رواية "اختفاء السيد لا أحد" هي رواية تشكل فيها مسألة الهوية خصوصيتها الأساسية، فقد عكست تساؤلات الفرد الجزائري عن العلاقة التي تربطه بوطنه، وقد عبرت هذه التساؤلات عن تأزم الهوية بفعل المحنة التي مر بها الوطن في مرحلة العشرية السوداء، وهي مرحلة حساسة من تاريخ الجزائر، كان لها تأثير كبير في نفسيات أفراد الشعب الجزائري، وخصوصا المثقفين منهم، وقد وظف الكاتب "أحمد طيباوي" الشخصية المثقفة لكي تعبر عن حقيقة الوضع في تلك المرحلة، كونها القادرة على قراءة ما وقع وتقديم تفسير له.

استخدم الكاتب في ذلك لغة الإدانة الصريحة للمتسببين في المحنة، وما انجر عنه من تفكك للهوية، وشعور الفرد بالاغتراب عن المكان الذي يعيش فيه، ورغبته في مغادرته بحثا عن الأمان، والاستقرار، وحياة أفضل، يشعر فيها بوجوده الحقيقي وفعاليته الإنسانية.

إن قضية الهوية التي تطرحها رواية "اختفاء السيد لا أحد" هي قضية جماعية وليست ذاتية، والتعبير عنها تم بطريقة ساخرة تنم عن خيبات أمل ما بعد الاستقلال، والتي تجسدت من خلال الكثير من الشخصيات في الرواية، التي بدت وحيدة، معزولة، يائسة، ضائعة، محبطة، لا أمل لها في الحياة، مما طبع الرواية بطابع مأساوي حزين يترجم ما تعيشه الجماعة في الراهن من عبثية في مجالات مختلفة من حياتها، هذه العبثية التي أدت إلى غربتها، وشقائها، وتأزم هويتها، ومن ثمة نكرانها لذاتها.

الهوامش والإحالات:

[1] أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية (دراسة أدبية)، دار الساحل للكتاب، (د، ط)، الرغاية، الجزائر، (د، ت)، ص15.

[2] نادر كاظم: تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط-دراسات-فكر)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص15.

[3] ينظر: عبد المالك اشهبون: العنوان في الرواية العربية(دراسة)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سورية، 2011، ص6.

[4] يمنى العيد: في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، 1985، ص18.

[5] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص15.

[6] المصدر نفسه، ص11-12.

[7] جورج لوكاش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد، العراق، 1986، ص89

[8] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2019، ص17.

[9] أميرة علي الزهراني: الذات في مواجهة العالم (تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص168-169.

[10] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص8.

[11] المصدر نفسه، ص ن.

[12] المصدر نفسه، ص15.

[13] حسن المودن: الرواية والتحليل النصي (قراءات من منظور التحليل النفسي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، 2009، ص8.

[14]ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، تر:محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، باريس، 1987، ص101

[15] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص61.

[16] المصدر نفسه، ص ن.

[17] المصدر نفسه، ص64.

[18] المصدر نفسه، ص71.

[19] المصدر نفسه، ص 50.

[20] المصدر نفسه، ص26.

[21] المصدر نفسه، ص24.

[22] المصدر نفسه، ص17.

[23] المصدر نفسه، ص109-110.

[24] المصدر نفسه، ص22.

[25] لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجية الرواية، تر:بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سورية، 1993، ص19.

[26] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص5.

[27] المصدر نفسه، ص7.

[28] المصدر نفسه، ص20.

[29] المصدر نفسه، ص33.

[30] المصدر نفسه، ص46.

[31] المصدر نفسه، ص59.

[32] المصدر نفسه، ص61.

[33] المصدر نفسه، ص73.

[34] المصدر نفسه، ص84.

[35] المصدر نفسه، ص96.

[36] المصدر نفسه، ص108.

[37] جابر عتيق: الرواية..الشخصيات الهامشية، على الرابط الإلكتروني: https://jaberatiq.com/، اطلع عليه بتاريخ: 24 /2021/05، على الساعة: 12:15.

[38] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص9.

[39] فخري صالح: في الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2009، ص11.

[40] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص 7.

[41]حسنين حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2012، ص24.

[42] المرجع نفسه، ص ن.

[43] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص36.

[44] المصدر نفسه، ص14.

[45] المصدر نفسه، ص7.

[46] المصدر نفسه، ص8.

[47] المصدر نفسه، 75.

[48]ينظر: أحمد منور: ملامح أدبية (دراسات في الرواية الجزائرية)، دار الساحل للنشر وتوزيع الكتاب، (د، ط)، 2008، ص164-165.

[49]سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة (دراسة نقدية)، (د، ط)، الكويت، 2008، ص21.

[50] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص12.

[51] المصدر نفسه، ص28.

[52] المصدر نفسه، ص101-102.

[53] بوزيان بغلول: الرواية الجزائرية الجديدة متى؟ لماذا وكيف؟ (قراءة من منظور النقد الثقافي)، ط1، الجزائر، 2020، ص71.

[54] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص46.

[55] عبد الله محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ط)، القاهرة، 2003، ص13.

[56] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص11.

[57] المصدر نفسه، ص22.

[58]ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية): على الرابط الإلكتروني: http://www.alwasatnews.com/news/510622.html، اطلع عليه بتاريخ 28ماي2021، على الساعة:20:06.

[59] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص93.

[60] ساجدة عبد الكريم خلف التميمي: الاغتراب في شعر نازك الملائكة، دار غيداء للنشر والتوزيع، (د، ط)، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 2016، ص97.

[61] حسنين حسن حنفي: الهوية، ص25.

[62] أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، ص87.

[63] المصدر نفسه، ص119.

[64] المصدر نفسه، ص42.

[65] المصدر نفسه، ص42.

* تحدث "رولان بارت" في كتابه "الكتابة في درجة الصفر" عن القراءة الإنتاجية، ودور القارئ في بناء معان جديدة للنص؛ إذ يكتب نصا جديدا فوق النص الأدبي الذي قرأه.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد طيباوي: اختفاء السيد لا أحد، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2019.
2. أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية (دراسة أدبية)، (د، ط)، دار الساحل للكتاب، الرغاية، الجزائر، (د، ت).
3. أحمد منور: ملامح أدبية (دراسات في الرواية الجزائرية)، دار الساحل للنشر وتوزيع الكتاب، (د، ط)، 2008.
4. بوزيان بغلول: الرواية الجزائرية الجديدة متى؟ لماذا وكيف؟ (قراءة من منظور النقد الثقافي)، ط1، الجزائر، 2020.
5. حسنين حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2012.
6. نادر كاظم: تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط –دراسات– فكر)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004.
7. عبد المالك اشهبون: العنوان في الرواية العربية(دراسة)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سورية، 2011.
8. يمنى العيد: في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، 1985.
9. جورج لوكاش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد، العراق، 1986.
10. أميرة علي الزهراني: الذات في مواجهة العالم (تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
11. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي (قراءات من منظور التحليل النفسي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، 2009.
12. ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، تر:محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، باريس، 1987.
13. لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجية الرواية، تر:بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سورية، 1993.
14. فخري صالح: في الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2009.

15. عبد الله محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ط)، القاهرة، 2003.
16. ساجدة عبد الكريم خلف التميمي: الاغتراب في شعر نازك الملائكة، دار غيداء للنشر والتوزيع، (د، ط)، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 2016.
17. سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة (دراسة نقدية)، (د، ط)، الكويت، 2008.
18. ملتقى الباحة الأدبي الرابع (تمثيلات الآخر في الرواية العربية): على الرابط الإلكتروني: http://www.alwasatnews.com/news/510622.html.
19. جابر عتيق: الرواية.. الشخصيات الهامشية، على الرابط الإلكتروني: https://jaberatiq.com/